

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

رِحْلَةٌ فِي اَزْدِوَاجِ الذَّاتِ،
وَوَحْشَةِ الْقَلْبِ، وَخَدِيعَةِ الزَّمَنِ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ



سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

رحلةٌ في ازدواج الذات، ووحشة القلب، وخديعة الزمن
تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

حين ينقسم الإنسان على نفسه ليست أخطر المسافات تلك التي تفصل الإنسان عن غيره، بل تلك التي تنفتح في داخله بين ما يقول وما يكون، بين الوجه الذي يقدمه للعالم والوجه الذي يراه الله، بين حقيقة يعرفها في أعماقه وحياة يصرّ على أن يعيشها في الاتجاه الآخر. وحين تتسع هذه المسافة لا يعود الإنسان شخصاً واحداً؛ يصبح كأنه يسكن ذاتين متجاورتين: ذاتاً تتكلم، وذاتاً تضرع؛ ذاتاً تصنع الانطباع، وذاتاً تخفي الحقيقة؛ حتى يغدو العمر كله محاولة شاقة للإبقاء على الجدار قائماً بين الوجهين.

ومن هنا تأتي سورة المنافقون لا بوصفها حديثاً عابراً عن جماعة تاريخية انقضى زمانها، بل بوصفها كشفاً قرآنياً مذهلاً لبنية إنسانية قابلة للتكرار ما بقي الإنسان قادراً على أن يقول شيئاً ويكون شيئاً آخر. إنها سورة قصيرة في عدد آياتها، لكنها تدخل إلى مناطق شديدة العمق من النفس؛ مناطق لا تكشفها الأفعال الظاهرة بسهولة، لأن صاحبها قد يكون حسن الهيئة، قوي الحضور، جميل العبارة، قادراً على أن يقول الحق نفسه، ثم يكون قلبه في ناحية أخرى تماماً.

وتبدأ المفارقة منذ اللحظة الأولى.

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾.

إنهم لا يفتتحون حضورهم بالإنكار، بل بالشهادة.

لا يعلنون الباطل، بل ينطقون بالحق.

ومع ذلك يقول الله:

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

وهنا يضع القرآن يدنا على حقيقة دقيقة: ليست الكلمات صادقة لمجرد أن معانيها صحيحة؛ فقد تحمل الجملة حقيقة عظيمة، ويكون قائلها كاذباً لأن حياته لم تدخل في

معناها. إن الكذب قد يقع في المسافة بين العبارة وصاحبها، حين يصبح الكلام أكبر من القلب الذي ينطقه، وحين تتحول اللغة من كشف للحقيقة إلى وسيلة لصناعة صورة عنها. ومن هذه اللحظة يبدأ الكاتب رحلته.

لن نقف طويلاً عند سؤال: ماذا قال المنافقون؟ بقدر ما سنسأل: كيف تتكون النفس القادرة على أن تقول هذا؟ كيف ينشأ في الإنسان ذلك الانقسام الذي يسمح له أن يعرف الحق ثم يبني حياته على غيره؟ كيف يتحول القناع من أداة مؤقتة إلى وجه دائم؟ وكيف يحتاج صاحب الازدواج كل يوم إلى مزيد من اللغة والتبرير والحماية حتى لا تنكشف المسافة بين حقيقته وصورته؟

ثم تأتي تلك الصورة التي تكاد تختصر السورة كلها:

﴿كَانَ هُمْ خَشَبٌ مُسْتَدَّةٌ﴾.

ليسوا أشجاراً.

الشجرة فيها جذر، وفيها حياة، وفيها اتصال خفي بالأرض، وفيها غو ينبع من الداخل. إنهم خشب.

ثم ليس الخشب داخل بناء يؤدي وظيفة، بل هو مُسَدَّدٌ يحتاج إلى غيره كي يظل قائماً.

وما أشد قرب هذه الصورة من أحوال بشرية كثيرة: إنسان لا يقف من داخله، بل تسنده السمعة؛ يسنده المنصب؛ يسنده الجمهور؛ تسنده الجماعة؛ يسنده الإعجاب؛ تسنده صورة صنعها الناس عنه. فإذا نزعته عنه تلك المسندات لم يبق كثير مما يستطيع أن يستند إليه.

ولعل هذا هو أحد الأسئلة التي ستصاحب هذه الصفحات كلها:

ما الذي يسند الإنسان حين تسقط المسندات؟

ماذا يبقى منك إذا انطفأت الأضواء؟

إذا لم يصفق أحد؟

إذا لم يبق لقب؟

إذا لم تعد هناك صورة تحتاج إلى المحافظة عليها؟

إذا خلوت بنفسك تماماً، ولم يكن بينك وبين الله أحد؟

هناك تبدأ معرفة الحقيقة.

ولهذا فإن سورة المنافقون ليست سورة المظاهر وحدها، بل سورة الداخل المفقود. إنها تكشف الإنسان الذي بالغ في صناعة الخارج حتى أهمل بناء المركز الذي ينبغي أن يقوم عليه الخارج كله.

ثم تمضي السورة بنا إلى منطقة أشد ظلمة: الخوف.
﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

فصاحب القناع لا يعيش آمناً كما يتوهم. إنه يحمل سر انكشافه معه. وكل صوت يمكن أن يصبح تهديداً، وكل كلمة قابلة لأن تُقرأ اتهاماً، وكل نظرة قد تتحول في ذهنه إلى سؤال. إن الخداع الذي بدأ وسيلة للنجاة ينتهي حصاراً داخلياً؛ لأن الإنسان يستطيع أن يخفي الحقيقة عن الناس زمناً، لكنه يظل يعيش بالقرب منها في نفسه.
ثم تكشف السورة عصباً آخر من أعصاب الأزمة:
﴿لَوْ أَرَأَوْهُمْ﴾.

فليست المشكلة أن طريق الرجوع غائب، بل أن الكبر يجعل الرجوع ثقيلاً.
كم من إنسان كان يفصله عن النجاة اعتراف واحد، لكنه لم يستطع أن يقوله.
كم من خصومة كان يمكن أن تموت بجملة: أخطأت.
وكم من قلب كان يستطيع أن يبدأ من جديد لو رضي صاحبه أن يخسر شيئاً من صورته كي يسترد حقيقته.

إن الكبرياء لا يمنع الإنسان من الاعتراف بالخطأ فحسب؛ بل قد يدفعه إلى صناعة منظومة كاملة من التبريرات حتى لا يضطر إلى ذلك الاعتراف. وهنا تصبح النفس حارسة للسجن الذي بنته لنفسها.

ثم يدخل المال إلى المشهد:
﴿لَا تُفْقُوا عَلَىٰ مَن عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَفْضُوا﴾.
فتكشف نظرة أخرى إلى العالم: من يملك الرزق يملك البشر.

لكن السورة ترفع السقف فجأة:
﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
هنا يتصادم تصوران كاملان للوجود.

تصور يرى العالم شبكةً مغلقةً من المصالح والقوى والأيدي التي تمنح وتمنع، وتصور يرى وراء الأسباب كلها رباً لا تتفد خزائنه.

ومن لا يرى إلا يد الإنسان سيذل للإنسان.
أما من يرى يد الله وراء الأسباب، فإنه يتعامل مع الأسباب دون أن يمنحها مقام الربوبية في قلبه.

ثم تأتي معركة العزة:
﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾.

إنها ليست كلمة عابرة، بل سؤال وجودي: ما القوة؟ ومن العزيز؟
هل العزيز من يستطيع إخضاع الآخرين، أم من لا يستطيع الآخرون شراءه؟
هل العزة في القدرة على التحكم بالأرزاق، أم في التحرر من عبودية الرزق؟
هل الأقوى من يملك المال، أم من يستطيع أن يقول لا حين يُعرض عليه المال ثمناً لضميره؟

ثم في حركة قرآنية مدهشة، تنصرف السورة عن المنافقين.
بعد أن جعلتنا نراقبهم آية بعد آية، يأتي النداء:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وهنا تنتهي متعة التفرج.
تتجه المرأة نحونا.

فليست الغاية من تشريح المرض أن تشعر النفس بتفوقها على المرضى، بل أن تفتش عن البذور الدقيقة التي يمكن أن تبدأ منها العلة.
وإذا كانت مشكلة المنافق أنه جعل شيئاً آخر مقدماً على حقيقة الإيمان، فإن المؤمن نفسه قد يُبتلى بشيء أقل ظهوراً:
﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

ويا لعظمة هذا الانتقال.

من الخداع إلى اللهو.

من القناع المتعمد إلى الانشغال الذي قد يبدو بريئاً.

كأن القرآن يقول: ليست كل المسافات التي تبعد الإنسان عن مركزه تبدأ بخيانة كبيرة. بعضها يبدأ بشيء يحبه، ثم يمنحه من قلبه أكثر مما ينبغي.
قد لا ينكر الإنسان الله، لكنه يعيش كما لو أن المال هو الحقيقة الكبرى.
وقد لا يرفض الآخرة، لكنه يستنفد حياته كأن الدنيا لا تنتهي.
وقد لا يقول إن أبناءه أهم من الله، لكنه يتخذ من حبه مبرراً لكل تنازل يعبده عن الله.

وهكذا تنتقل السورة من النفاق بوصفه مرضاً ظاهر البنية إلى سؤال أعمق: ما الذي يحتل مركز القلب؟

ثم تفتح النهاية على الزمن.
﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾.
كأن السورة كانت منذ أولها تتجه إلى هذه اللحظة.
فالنفاق كله يقوم على مهلة متوهمة.
ما دام هناك غد، يمكنني أن أوجل الصدق.
ما دام هناك وقت، يمكنني أن أعيش الآن بطريقة وأصحها لاحقاً.
ما دام العمر ممتداً، يمكنني أن أحتفظ بالقناع قليلاً ثم أخلعه في اللحظة المناسبة.
لكن الموت لا يسأل الإنسان إن كان قد انتهى من ترتيب روايته.
يأتي.

وحين يأتي، تتوقف إمكانات التعديل.

لهذا يقول الإنسان:

﴿رَبِّ لَوْ لَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.
لا يريد في تلك اللحظة عمراً أسطورياً.
فقط قليلاً من الوقت.

والقليل الذي كان يهدره بالأمس يصبح أمنية الوجود كلها.
وهنا تبلغ السورة أقصى كشفها: ربما لا يكون التسويف بعيداً عن بنية النفاق كما نظن؛
ففي كليهما فجوة بين ما يعرفه الإنسان وما يفعله. المناق يؤجل مطابقة القلب للسان،
والمسوِّف يؤجل مطابقة العمل للقناعة.

كلاهما يقول للحقيقة:
ليس الآن.

وهذا الكتاب رحلة داخل هذه المسافات.
لن نحاول أن نضع أسماء الناس على الآيات.
سنحاول أن نضع قلوبنا أمامها.
لن نقرأ ﴿خُشِبَ مُسَدَّةٌ﴾ لنبحث عمن يشبهها، بل لنسأل: ما مقدار ما يقوم في حياتنا
بنفسه، وما مقدار ما لا يقوم إلا بنظرات الآخرين؟
ولن نقرأ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ بوصفها وصفاً لنفس غريبة عنا، بل لتأمل
كيف يتحول الكتمان والخداع والتبرير إلى خوف يسكن صاحبه.
ولن نمر على المال والعزة والموت كموضوعات متفرقة، بل سنراها حلقات في سؤال
واحد:

أين يقيم الإنسان حقاً؟
في حقيقته أم في صورته؟
في قلبه أم في أعين الآخرين؟
في خزائن الله أم في خزائن البشر؟
في الحاضر الذي يملكه أم في غدٍ يتوهم أنه مضمون؟
إن سورة المنافقون ليست طويلة.
لكنها من السور التي لا تحتاج إلى صفحات كثيرة لتفتح قبواً كاملاً في النفس.
وكلما أمعنت النظر فيها شعرت أن أخطر شيء يمكن أن يحدث للإنسان ليس أن
يعرف الناس عنه حقيقة مؤلمة.

بل أن يقضي عمره كله وهو يهرب من معرفتها هو.
فالنجاة تبدأ حين يجرو الإنسان على أن يكون واحداً.
قلباً واحداً.
وجهاً واحداً.
ومعياراً واحداً.
وأن يقلل، ما استطاع، المسافة بين ما يؤمن به وما يعيشه.

لأن العمر، مهما بدا طويلاً، ينتهي عند لحظة يصبح فيها كل ما خفي ظاهراً، وكل ما
أُجِّلَ منتهياً، وكل ما كان «سوف» وراءنا إلى الأبد.
وعندها لا يبقى من الإنسان ما قال عن نفسه.
يبقى ما كانه حقاً.

الفصل الأول

الشهادة التي لا تشهد لصاحبها
﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

تبدأ السورة من مكانٍ مدهش: لا من جريمة ظاهرة، ولا من إنكار صريح، ولا من
مواجهة يرفع فيها الباطل رايته، بل تبدأ من كلام صحيح.
وهنا أول الصدمات.

المنافقون لم يأتوا إلى النبي ﷺ يقولون: لست رسول الله. بل جاءوا يحملون الجملة التي
يقولها المؤمن، وينطقون بالحقيقة نفسها، ويقدمونها في صورة شهادة مؤكدة: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ
لَرَسُولُ اللَّهِ﴾.

ولكن القرآن لا ينظر إلى الجملة وحدها.

القرآن ينفذ من اللفظ إلى صاحبه.

من العبارة إلى القلب الذي أخرجها.

من صحة القول إلى حقيقة القائل.

ولهذا كان كذبهم عجيبيًا؛ لأن مضمون كلامهم حق، ومع ذلك سماهم الله كاذبين.
إنهم لم يكذبوا في أن محمدًا رسول الله، وإنما كذبوا في قولهم: نشهد. فالشهادة ليست حركة
لسان فحسب؛ إنها تطابق بين ما يقوله الفم وما يقوم في الداخل. وحين ينفصل اللسان
عن القلب، قد تكون الكلمات صحيحة، لكن الإنسان نفسه يصبح كاذبًا.

وهنا تضع السورة يدها على الجرح الأكثر خفاءً في التجربة الإنسانية: ليس أخطر
الكذب أن تقول شيئًا باطلاً؛ بل أن تقول شيئًا حقًا دون أن تكون أنت من أهل هذا
الحق.

يمكن للإنسان أن يتحدث عن الفضيلة، وهو يبني حياته على نقيضها.

أن يصف الصدق ببلاغة، ثم يعيش بعقلية المراوغة.

أن يدافع عن الإيمان، بينما لا يسمح للإيمان أن يعيد ترتيب رغباته ومصالحه.

أن يعرف المفردات كلها، ولا تدخل واحدة منها إلى موضع القرار في قلبه.

وهكذا ينشأ الانقسام.

هناك «ذاتٌ تُعرَضُ»، وذاتٌ أخرى «تُعِيشُ».

وجه اجتماعي مصقول بعناية، وداخل يسلك طريقاً آخر.

صورة يريد الإنسان أن يراها الناس، وحقيقة يخشى أن يراها هو.

إن النفاق في مستواه الأعمق ليس مجرد أن يخدع الإنسان الآخرين؛ بل أن يعتاد

المسافة بين ما يقول وما يكون، حتى تصبح تلك المسافة مكان إقامته الطبيعي.

وفي البداية يشعر بالتناقض.

ثم يألفه.

ثم يدافع عنه.

ثم قد يبلغ به الأمر أن ينسى أن هناك تناقضاً أصلاً.

وهذه إحدى أخطر تحولات النفس: أن يتحول القناع من شيء يرتديه الإنسان إلى

شيء يظنه وجهه.

ولذلك جاء التعبير: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَاقِقُونَ﴾.

إنهم يجيئون بأجسادهم.

أما الحقيقة فلا تجيء معهم.

تحضر الكلمات ويتخلف القلب.

يحضر الشكل وتغيب الروح.

يحضر الإنسان الاجتماعي الذي أعد نفسه للمشهد، بينما يظل الإنسان الحقيقي مختبئاً

في مكان آخر.

ومن هنا يمكن قراءة السورة كلها بوصفها رحلة في كشف هذه الهوة: كيف ينقسم

المرء على نفسه؟ وكيف تتحول اللغة من طريق إلى الحقيقة إلى ستار عليها؟ وكيف يصبح

الإنسان ماهراً في تمثيل الصورة التي يريدها، حتى يخسر القدرة على أن يكون شيئاً

حقيقياً؟

وفي قلب الآية لطيفة شديدة العمق.

فالله يقول:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾.

كأن الحقيقة لا تحتاج إلى شهادتهم.
 رسالة النبي ﷺ ثابتة بعلم الله، سواء صدقوا أم كذبوا، شهدوا أم جحدوا.
 وهذا يحرر الحقيقة من أصوات البشر.
 الحق لا يصبح حقاً لأن المنافق أثنى عليه، ولا يفقد حقيقته لأن المكابر أنكره.
 هناك أشياء أعلى من تصويت الناس عليها.
 الشمس لا تحتاج إلى شهادة العميان لتكون مضيئة.
 والحقائق الكبرى لا تستمد وجودها من مقدار التصفيق الذي تحظى به.
 إنما الذي يُختبر بالشهادة هو الشاهد نفسه.
 حين تقول: أو من، لا تضيف شيئاً إلى الله.
 إنما تكشف شيئاً عن نفسك.
 وحين تقول: هذا حق، لا تمنح الحق منزلته؛ وإنما تحدد موقعك أنت منه.
 ومن هنا يصبح السؤال الذي تفتتح به السورة سؤالاً مربعاً في بساطته:
 كم من الكلمات الصحيحة التي نقولها لا تمثلنا؟
 كم من المبادئ التي نحسن شرحها ولا نجد لها حين نفتش في سلوكنا؟
 وكم من مرة استعملنا الحقيقة لا كي نهتدي بها، بل كي نبني بها صورة جميلة لأنفسنا
 أمام الآخرين؟
 إن السورة منذ الآية الأولى لا تريد منك أن تسأل فقط: من المنافق؟
 بل تريد أن تسأل سؤالاً أشد قرباً:
 كم بقي من المسافة بين لساني وقلبي؟
 فالإنسان لا يبدأ سقوطه حين يتوقف عن معرفة الحق.
 أحياناً يبدأ سقوطه الأخطر حين يعرف الحق جيداً، ثم يتعلم كيف يستخدم معرفته به
 دون أن يدفع ثمن الانتماء إليه.

الفصل الثاني

حين تتحول المقدسات إلى وسائل دفاع
﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
أَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿

ما الذي يفعله الإنسان حين يخشى انكشاف حقيقته؟
يبني جداراً.

لكن المنافق لا يبنيه بالمجارة.

يبنيه بالكلمات المقدسة.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾.

والجنة هي ما يستتر به الإنسان ويحتمي. شيء يقف بينه وبين ما يخشاه.

وهنا تصبح الأيمان، التي يفترض أن تكون علامة صدق، أداة لحماية الكذب.

وهذه مفارقة تكشف مقدار الانقلاب الذي يمكن أن يحدث في النفس: قد يتحول

الشيء الذي خلق ليحرس الحقيقة إلى وسيلة لإخفاءها.

ليس الفساد دائماً أن ترفض القيم.

أحياناً يبلغ الفساد مرحلة أكثر ذكاءً: أن تستخدم القيم نفسها في خدمة نقيضها.

أن تستعمل لغة الأخلاق لتغطية مصلحة.

ولغة الدين لحماية هوى.

ولغة الوفاء لإخفاء غدر.

ولغة المظلومية لتبرير ظلم.

ولغة الحكمة لستر الجبن.

وهنا تصبح المفردات بريئة، لكن اليد التي تستعملها ليست بريئة.

إن كل قيمة يمكن أن تتحول إلى «جنة» إذا خرجت من كونها مبدأ يحاكم الإنسان

نفسه إليه، وصارت أداة يحتمي بها من محاكمة الآخرين.

ولذلك لم تقل الآية إنهم كانوا يقسمون فقط، بل قالت: ﴿اتَّخَذُوا﴾.

في الفعل قصد.

صناعة.

استخدام وظيفي.

إنهم يعرفون وظيفة اليمين في نفوس السامعين، فيضعونه حيث يحتاج القناع إلى مزيد من التثبيت.

وهذه طبيعة الذات المزدوجة: لأنها لا تملك قوة الحقيقة في الداخل، تضطر دائماً إلى تقوية صورتها في الخارج.

الصادق يحتاج إلى كلام أقل.

أما صاحب الصورة المصنوعة فيحتاج دائماً إلى قرائن إضافية، وتوكيدات إضافية، واستعراض إضافي؛ لأن البناء من الداخل هش.

والأشد خطورة أن هذا الاحتماء لا يبقى شأناً شخصياً.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

حين يفسد النموذج الذي يتكلم باسم القيمة، لا يسيء إلى نفسه وحده، بل قد يسيء إلى القيمة في أعين الآخرين.

فالناس كثيراً ما يرون المبدأ من خلال حامله.

وحين يشاهدون شخصاً يكثر الحديث عن الصدق ثم يغدر، قد لا يكرهون الرجل

وحده؛ قد يتسلل إلى نفوس بعضهم شك في الكلمات التي كان يرفعها.

وهكذا يصبح النفاق قوة صد.

لأنه يقدم فلسفة فكرية متماسكة ضد الحق، بل لأنه يقدم صورة مشوهة لمن ينتسب إليه.

ولعل في هذا أحد أسباب بشاعة النفاق: الكافر الصريح يقف خارج البيت ويرمي، أما

المنافق فقد يدخل البيت ثم يعيث بمصايحه.

ثم تكشف الآية التالية أن المسألة ليست حادثة منفصلة:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

هناك حركة إلى الوراء.

رأوا شيئاً من النور ثم ارتدوا إلى الظلمة.

وهذا يجعل حالتهم أشد تعقيداً من جهل لم يعرف صاحبه شيئاً.

فالإنسان قد يرى الحق، لكنه لا يطبق تبعاته.
ذلك أن معرفة الحقيقة شيء، والاستعداد لأن تعيد الحقيقة تشكيل حياتك شيء آخر.
قد يؤمن العقل بأن الطريق صحيح، ثم تكتشف النفس أن الطريق سيئاً بالتواضع،
أو بالتضحية، أو بالتخلي عن سيطرة، أو برد مظلمة، أو بتغيير تحالف، أو بكسر شهوة؛
فتبدأ المقاومة.

ومن هنا يحدث الصراع الصامت بين «ما عرفته» و«ما أريده».
إذا انتصر الهوى مرةً بعد مرة، لا تبقى المعرفة كما كانت.

القلب نفسه يتغير.
﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.
والتعبير شديد الدقة؛ لأن الكارثة النهائية ليست نقص المعلومات.
إنهم يسمعون.
ويعرفون.

وخالطون مجتمع الوحي.
ولكن شيئاً في الداخل لم يعد يستقبل المعنى استقبلاً سليماً.
الفقه هنا أعمق من وصول المعلومة.
إنه أن تنفذ الحقيقة إلى حيث تغيرك.
قد تقرأ ألف كتاب ولا تفقه.
قد تحفظ النص وتبقى خارجه.
قد تعرف تعريفات الفضائل كلها، ثم تفشل حين تأتي لحظة واحدة تحتاج فيها إلى
فضيلة واحدة.

القلب المطبوع ليس عقلاً فارغاً.
قد يكون صاحبه شديد الذكاء.
إنما المشكلة أن ذكائه لم يعد يقوده إلى الحق؛ بل صار موظفاً عند الرغبة.
وهنا يبلغ الانقسام مرحلة خطيرة: لا يعود الإنسان يستخدم عقله ليعرف أين أخطأ،
بل يستخدمه كي يبرهن لنفسه أنه لم يخطئ.

وهذه من أبشع سجون النفس؛ لأن السجين فيها يحمل مفتاح سجنه، لكنه يقنع نفسه
كل صباح أن الجدران حرة.

الفصل الثالث

خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ: حين يكتمل الشكل ويموت الداخل
﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ
يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاذْهَبْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ﴾

هنا تبلغ الصورة القرآنية ذروة من الذرى التي لا تنتهي دهشتها مهما تكررت القراءة:
﴿كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ﴾.

قبل التشبيه يمنحك القرآن الصورة الخارجية كاملة.
أجسام تعجب.

وكلام يجذب السمع.
مظهر له حضوره.

وصوت يعرف كيف يلفت الانتباه.

كل عناصر التأثير الخارجي موجودة.

ثم فجأة ينقلك القرآن خلف الواجهة:
خشب.

مسندة.

إنها ليست صورة للقيح.

وهنا سرها.

فقد يكون الخشب جميلاً، مستقيماً، مصقولاً، ضخماً، مرتفعاً، لكنه يظل من الداخل
فاقدًا لذلك المعنى الذي يجعل الكائن حياً متجهاً بإرادته إلى غاية.

ثم إنها ليست حتى خشباً في بناء يؤدي وظيفة.
إنها ﴿مُسْنَدَةٌ﴾.

موضوعة إلى جدار.

تستمد وضعها من شيء خارجها.

ولو أزيل ما تستند إليه سقطت.

وهنا يفتح التشبيه نافذة مذهلة على سيكولوجيا الإنسان الذي بنى ذاته كلها على الخارج.

إن هناك أشخاصاً لا تقوم ذواتهم من داخلها.

تسندهم نظرات الآخرين.

تصفيق الجمهور.

المنصب.

اللقب.

الجماعة.

الصورة العامة.

الشهرة.

المال.

الهيبة.

فإذا نُزعت هذه المسندات ظهر مقدار الفراغ.

الإنسان الحي له مركز داخلي.

يعرف لماذا يفعل.

ويملك شيئاً يبقى معه حين يخلو بنفسه.

أما الإنسان الذي تحول إلى صورة، فيحتاج باستمرار إلى جدار يسنده؛ لأن ذاته لم تعد

قادرة على الوقوف وحدها.

ومن هنا نفهم لماذا جمعت الآية بين الإعجاب بهم والخوف في داخلهم.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

كم هو بليغ هذا الانتقال!

من الخارج: حضور يلفت الأبصار.

ومن الداخل: هلع يتلفت عند كل صوت.

وهذا أحد قوانين النفس التي تعيش بكذبة: كلما عظمت الصورة التي يصنعها الإنسان

عن نفسه، ازداد خوفه من لحظة انكشافها.

المطمئن لا يفسر كل شيء على أنه تهديد.

أما من يحمل سرّاً يخشاه، فإن العالم كله يتحول في وعيه إلى احتمال فضيحة.
نظرة عابرة قد يراها اتهاماً.

كلمة عامة يظنها موجهة إليه.

سؤال بريء يسمعه تحقيقاً.

صمت الآخرين يملؤه بما يخافه.

إن الذنب الذي لا يواجهه صاحبه لا يبقى خلفه.

إنه يمشي أمامه.

يصبغ الأشياء.

يُسمعه ما لم يُقل.

ويريه في الوجوه محاكم لا وجود لها إلا في داخله.

وهكذا يتحول النفاق، الذي بدأ محاولة لحماية النفس، إلى آلة خوف.

ظن الإنسان أنه بالقناع سيعيش آمناً.

فصار القناع نفسه سبب رعبه.

لأن الصادق يخاف من الخطأ، لكن الكاذب يخاف من الاكتشاف.

والفرق بينهما شاسع.

من يخاف الخطأ يمكن أن يصلحه.

أما من لا يخاف إلا انكشاف الخطأ، فإنه قد يضيف إلى خطئه ألف خطأ كي يحمي

صورته.

ثم تأتي الجملة الحاسمة:

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ﴾.

ولماذا بلغت الخطورة هذا الحد؟

لأن العداوة الظاهرة يمكن تحديد موقعها.

تعرف من أين تأتي الضربة.

أما العداوة التي ترتدي لباس الصداقة، فهي تدخل إلى المساحات التي لا تسمح للعدو

الصريح بدخولها.

إنها تعرف اللغة الداخلية.

وتعرف نقاط الضعف.

وتحضر المجلس.

وتستعمل كلمات الانتماء نفسها.

ولهذا لا يتحدث السورة عن اختلاف فكري فحسب، بل عن انهيار أخلاقي يجعل

الإنسان قادراً على أن يسكن داخل جماعة بينما يعمل في الاتجاه الذي يهدمها.

لكن الصورة أوسع من سياقها التاريخي.

إن «الخشب المسندة» يمكن أن تصبح مرآة حضارية كاملة.

كم من مؤسسات تبدو عملاقة وهي فارغة من الغاية التي أنشئت من أجلها.

كم من شعارات براقة لا يقف خلفها معنى.

كم من إنسان استثمر سنوات عمره في تحسين ما يراه الناس منه، وترك ما يراه الله منه

خرباً.

وربما أشد أنواع الفقر أن يملك المرء هيئة مكتملة، وسيرة لامعة، ولساناً فصيحاً، ثم لا

يجد حين يعود إلى قلبه شيئاً يسند من الداخل.

فالإنسان ليس بما يبدو عليه حين يدخل المجلس.

إنما الإنسان بما يبقى منه حين ينصرف الجميع.

الفصل الرابع

الرأس الذي يرفض الانحناء

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

كان يمكن أن تنتهي القصة بطريقة أخرى.

باب العودة لم يكن مغلقاً من البداية.

قيل لهم: ﴿تَعَالَوْا﴾.

وما ألطف هذه الكلمة في موضع كهذا.

ليس: ابتعدوا.

ليس: انتهيتم.

بل: تعالوا.

هناك مكان يمكن الرجوع إليه.

ومع كل ما فعلته الذات المزدوجة، ما زال أمامها مخرج واحد: أن تعترف بأن القناع

ليس وجهها.

لكن هنا يظهر الحارس الأخير للنفاق:

الكبر.

﴿لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ﴾.

الجسد نفسه يتكلم.

إنها حركة صغيرة تحمل عالماً كاملاً من المقاومة.

دعوة إلى المغفرة تقابلها رقبة متعالية.

المشكلة إذن لم تعد جهلاً بالطريق.

الطريق أمامهم.

وإنما صارت المشكلة أن العودة إليه تتطلب شيئاً لا تريد الذات المتضخمة أن تدفعه:

أن تنزل عن صورتها.

فالاعتراف بالخطأ مؤلم لمن بنى قيمته كلها على فكرة أنه لا يخطئ.
 والاعتذار شاق على من يظن أن مكانته لا تقوم إلا إذا بدا دائماً غالباً.
 والرجوع إلى الحق يبدو هزيمة لمن لم يفهم أن أعظم انتصار للإنسان أن ينتصر على
 الشيء الذي يمنعه من الرجوع.
 وهكذا قد يختار الإنسان استمرار الخراب؛ لأن إصلاحه يحتاج إلى جملة واحدة لا
 يستطيع أن يقولها:
 كنت مخطئاً.
 كم من خصومات امتدت سنوات لأن أحد الطرفين لم يرد أن يخسر دقيقة من
 كبريائه.
 كم من قلوب ازدادت قسوة لا لأنها لم تعرف الباب، بل لأنها استثقلت هيئة
 الداخلين منه.
 فباب التوبة منخفض.
 لا يدخله رأس منتصب بالغرور.
 إن التوبة ليست انتقالاً فكرياً فقط.
 إنها انحناء داخلية.
 اعتراف بأن الحقيقة أكبر منك.
 وأن صورتك ليست مقدسة.
 وأن الرجوع لا يصغرك؛ بل يعيدك إلى حجمك الإنساني الصحيح.
 لكن المنافق يريد النجاة بلا انكسار، والمغفرة بلا صدق، والصورة بلا ثمن.
 وهذا مستحيل.
 لذلك يتقلب الإعراض المتكرر إلى حالة وجودية:
 ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصْدُونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.
 إن الصدها حركة إرادة.
 الإنسان ليس حجراً رُمي بعيداً عن النور.
 إنه يمشي بعيداً عنه.
 مرة بعد مرة.

حتى تصبح المسافة التي صنعها باختياراته قدراً يحيط به.
ومن هنا نفهم الآية التالية بعيداً عن أي تصور سطحي: ليست القضية باب رحمة ضاق
بعد أن كان واسعاً، بل قلب أغلق على نفسه منافذ الرحمة بإصراره.
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.
لقد خرجوا مرة بعد مرة.
والفسق في أصل صورته خروج.
خرج القول عن القلب.
وخرج السلوك عن الحقيقة.
وخرج الإنسان من نور ما عرفه إلى ظلمة ما اشتى.
حتى أصبحت حياته كلها فعل خروج.
والغريب أن الإنسان حين يتمادى في ذلك قد يظن أنه يحافظ على حريته.
بينما هو في الحقيقة يفقدها.
لأن الحر هو الذي يستطيع الرجوع حين يرى الحق.
أما الذي تمنعه نفسه من الاعتراف، فقد صار عبداً لصورته.

اقتصاد النفاق: تخفيف منابع الخير
﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُفْقُّوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَفْضُوا^ق وَلِلَّهِ خَزَائِنُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾

فجأة تنتقل السورة من القلب إلى المال.

لكن الانتقال في الحقيقة ليس فجأة.

فالمال يكشف القلب.

بعد أن أخبرتنا السورة كيف يتكلم المنافق، وكيف يخاف، وكيف يرفض الرجوع،
تكشف الآن كيف يفكر حين تصبح الموارد أداة نفوذ.
﴿لَا تُفْقُّوا﴾.

إنها عقلية ترى الإنسان من خلال حاجته.

وتفكر في السيطرة عليه من خلال رزقه.

إذا لم نستطع أن نهزمه بالحجة، فلنحاصره بالخبز.

إذا لم يتراجع عن مبدئه، فلنجعل كلفة المبدأ عالية.

إذا استمر المجتمع من حول الرسالة في التماسك، فلنجفف منابع بقاءه.

وهنا يظهر أن النفاق ليس ضعفاً نفسياً سلبياً فقط؛ قد يتحول إلى مشروع للتحكم.

فالذات التي لا تؤمن بقيمة عليا تنظر إلى الأشياء كلها بوصفها أدوات.

المال أداة.

العلاقات أداة.

الناس أدوات.

حتى الإحسان عندها قد لا يكون إحساناً، بل استثماراً في الولاءات.

ومن هنا يمكن فهم لماذا يكون الإنفاق في الرؤية القرآنية أكثر من نقل مال من يد إلى

يد.

إنه تحرير للقلب من وهم الملك.

فلنفاق يقول ضمناً: الخزائن عندنا؛ إن أغلقناها انتهى الآخرون.

فيأتي الرد في ضربة واحدة:
 ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
 المشهد كله أكبر من حساباتهم.
 إنهم ينظرون إلى اليد التي تدفع.
 والقرآن يرفع النظر إلى المصدر الذي أعطى اليد وما فيها.
 يرون الخزانة الصغيرة أمامهم.
 ولا يرون خزائن السماوات والأرض.
 وهذه ليست مجرد قضية عقيدة نظرية.
 إنها قضية تحرر نفسي.
 فالإنسان يذل بقدر ما يعتقد أن رزقه محصور في باب واحد.
 ويخترع بقدر ما يعرف أن الأبواب كلها تقف وراءها خزائن الله.
 ليس معنى ذلك أن الأسباب لا وزن لها، وإنما أن السبب لا يتحول إلى إله صغير في القلب.

قد يغلق إنسان باباً.
 لكن لا يملك أن يغلق الوجود.
 قد يحرمك شخص من فرصة.
 لكنه لا يملك أن يمنع عنك كل ما كتب الله لك.
 قد يضيق عليك طريق.
 ويبقى في سلطان الله من الطرق ما لا يخطر لك على بال.
 المنافع لا يفقه هذا؛ لأنه يفسر العالم بمنطق القوة القريبة وحدها.
 يرى المال ولا يرى رازقه.
 يرى السلطة ولا يرى محدوديتها.
 يرى اللحظة ولا يرى ما وراءها.
 ولهذا يعود الوصف نفسه:
 ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

المشكلة مرة أخرى ليست في كمية المعلومات، بل في ضيق الأفق الذي تُقرأ به الأشياء.

إنه يرى المعادلة صحيحة:

إذا منعنا المال انفض الناس.

لكن ما غاب عنه هو المتغير الأكبر في المعادلة:
الله.

وكل حساب يستبعد صاحب الخزان قد يبدو شديد الدقة، لكنه يظل ناقصاً من أصل بنائه.

من الأعز؟ معركة الإنسان على تعريف القوة
﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

كل نفاق يخفي في مكان ما تصوراً فاسداً للقوة.

فما الذي يجعل إنساناً يختار وجهين؟

إنه في العادة يخاف أن يخسر شيئاً.

مكانة.

جماعة.

مالاً.

سلطة.

قبولاً.

سلامة.

ولهذا يحاول أن يحتفظ بكل الأبواب مفتوحة، وأن يمنح كل جهة الوجه الذي

يناسبها.

إنه يريد أن ينجو في كل الاحتمالات.

لكن هذه المرونة التي يتوهمها قوة تكشف في العمق ضعفاً شديداً؛ لأنه لا يملك شيئاً

يراه جديراً بأن يخسر من أجله.

وحين يقولون:

﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾

فنحن أمام معركة على تعريف العزة.

من الأعز؟

من يملك المال؟

من يملك العدد؟

من كانت له العصبية الأقدم؟

من يستطيع أن يضغط على الآخرين؟

هذه هي مقاييس الأرض حين تفصل عن السماء.

ثم تأتي إعادة التعريف:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

العزة في المنظور القرآني لا تبدأ من امتلاك القدرة على إذلال الآخرين.

إنها تبدأ من ألا يستطيع أحد أن يشتري ضميرك.

العزیز ليس بالضرورة من يقف فوق الناس.

قد يكون العزیز رجلاً ضعيف الجسد، قليل المال، لا يملك من أسباب الدنيا إلا

القليل، لكنه يقف أمام الإغراء ولا يبيع نفسه.

وقد يكون الذليل صاحب موكب ضخم؛ لأنه يعرف في داخله أنه سيغير كل مبادئه

إذا هدد أحد مصالحه.

إن معيار القوة هنا ينتقل من الخارج إلى الداخل.

من «ماذا أملك؟» إلى «من يملكني؟».

وهذا سؤال مرعب.

قد يظن الإنسان أنه يملك المال، ثم يكتشف أن المال يملكه.

يظن أنه يملك المنصب، فإذا كان مستعداً لبيع الحق كي لا يفقده، فقد أصبح المنصب

سيده.

ويظن أنه يستعمل الناس، فإذا صار رضاؤهم شرطاً لطمأنينته فقد صار أسيرهم.

العزة إذن تحرر.

ولهذا كانت لله أصلاً.

ومن الاتصال بالله تستمد النفس قدرتها على ألا تتخني لما دونه.

أما المنافق فإنه يوزع ولاءه على مصادر قوة متفرقة، ولهذا يبقى دائماً قلق.

مع من سأكون إذا تغيرت الموازين؟

أي خطاب سأستخدم الآن؟

من المنتصر المتوقع؟

إلى أي جهة ينبغي أن أميل؟

والإنسان الذي يغير بوصلته كلما تغير اتجاه الريح لا يصل.
قد يتحرك كثيراً، لكنه يدور.

من هنا يمكن فهم النفاق باعتباره أزمة وجودية في مركز الذات: الإنسان لم يحسم لمن ينتمي في أعماق أعماقه.

وما لم يحسم الإنسان هذا السؤال، ستظل حياته سلسلة مساومات.
في كل مفترق سيخسر قطعة صغيرة من نفسه كي يحتفظ بشيء خارج نفسه.
حتى إذا وصل إلى نهاية الطريق وجد أنه حافظ على أشياء كثيرة، لكنه لم يحافظ على
الإنسان الذي كان ينبغي أن يكونه.

حين لا يكون العدو منافقاً
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

هنا يحدث التحول المذهل في السورة.

منذ بدايتها وأنت تنظر إليهم.

المنافقون.

أقوالهم.

أيمانهم.

أجسامهم.

خوفهم.

استكبارهم.

مؤامراتهم.

حديثهم عن المال والعزة.

وجفأة يستدير الخطاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

كأن السورة تقول: انتهى النظر إليهم، وانظر الآن إلى نفسك.

وهذه إحدى أعظم طرائق القرآن في التربية.

إنه لا يسمح لك أن تحول الحديث عن الانحراف إلى متعة أخلاقية تتفوق بها على

المنحرف.

من السهل أن تقرأ سورة المنافقون وأنت تفتش عن وجوه الآخرين.

فلان يقول ما لا يفعل.

وفلان خشبة مسندة.

وفلان يتكبر.

وفلان يريد التحكم بالمال.

لكن القرآن بعد أن أراك الممرض في صورته الحادة، يعيد المرأة إلى وجهك.
أنت مؤمن.

لكن هل أنت في مأمن من كل الطريق المؤدي إلى الانقسام؟
﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

لم يقل: لا تملكوا الأموال.

ولم يقل: لا تحبوا الأولاد.

إنما قال: ﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾.

واللهو هنا عبقرى الدلالة؛ لأنه لا يعني بالضرورة أن الشيء شر.

قد يكون الشيء محبوباً ومشروعاً ونعمة، لكنه يحتل من القلب مساحة ليست له.

وهنا يظهر الخطر الأشد خفاءً على المؤمن: ليس كل ما يبعدك عن الله معصية ظاهرة.

قد يبعدك عنه شيء أحله الله لك.

ليست المشكلة في المال.

بل في اللحظة التي يصبح فيها المال أعلى من المعنى.

وليست المشكلة في الأولاد.

بل في اللحظة التي يدفعك حبهم إلى أن تنسى ما الذي تريد أن تورثهم إياه أصلاً.

قد يجمع الإنسان المال لأبنائه، ثم يخسر في أشياء الجوع قلبه الذي كان ينبغي أن يريهم

به.

قد يعمل من أجل مستقبل أسرته، ثم لا يبقى من حاضره شيء للأسرة.

قد يقول: أفعل كل هذا لأجلهم، بينما هم يريدون منه شيئاً لا يشتري.

حضوراً.

قلباً.

قدوة.

سكينة.

وهنا يبدو الانتقال من المنافقين إلى المؤمنين بالغ الحكمة.

التفان في أعرق بنيتة كان انفصال الظاهر عن المركز.

واللهو يمكن أن يصنع انفصلاً آخر أقل صخباً: أن يظل الإنسان مؤمناً، لكنه يعيش أيامه كما لو أن مركز حياته شيء آخر.

يصلي، لكن مشروعه الحقيقي في مكان آخر.

يذكر الله، لكن قلقه كله مربوط بالأرقام.

يعلم أن الآخرة هي الباقية، لكنه يستهلك أفضل طاقته كأن الدنيا هي الفرصة الوحيدة.

لهذا جاء الحكم:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

والخسارة كلمة تجارية.

كأن الآية تحدث من انشغل بالمال بلغتة نفسها.

أنت تحسب الأرباح؟

إذن احسب هذه أيضاً.

قد يزداد الحساب وينقص الإنسان.

قد تتضخم الممتلكات ويتقلص العمر.

قد تربح ما حولك وتخسر ما فيك.

وقد تنجح في تأمين مستقبل أولادك، ثم تصل وحدك إلى مستقبلك الأبدي خاوي

اليدين.

الخاسر ليس دائماً من فقد شيئاً.

قد يكون الخاسر من كسب الشيء الخطأ بثمن الشيء الصحيح.

غداً الذي لا يأتي

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۚ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

في خاتمة السورة يظهر الموت.

ولا يأتي بوصفه موضوعاً جديداً.

بل بوصفه الحقيقة التي تسقط عندها الأفتنة كلها.

طوال السورة كان المنافق يدير صورته.

يقول.

ويقسم.

ويخفي.

ويراقب.

ويتآمر.

ويحسب موازين القوة.

ويضع خطط الموارد.

كل ذلك يفترض شيئاً واحداً لا يصرح به:

أن هناك وقتاً طويلاً.

أن اللعبة ستستمر.

أن غداً موجود دائماً.

ثم يأتي الموت في آخر السورة ليمحو الطاولة كلها.

فجأة لا يعود السؤال:

كيف أبدو؟

بل:

ماذا قدمت؟

ولا:

من صدق قصتي؟

بل:

ما حقيقة قصتي؟

ولا:

ما مكانتي عند الناس؟

بل:

بماذا جئت إلى الله؟

ولهذا لم يكن انتقال السورة من النفاق إلى الزمن انتقالاً بعيداً.

فبين النفاق والتسويق قرابة خفية.

كلاهما يقوم على تأجيل الحقيقة.

المنافق يقول بلسانه شيئاً ويترك قلبه إلى وقت آخر.

والمسوّف يعرف ما ينبغي أن يفعله، لكنه يقول: سأفعل لاحقاً.

كلاهما يعيش بين حقيقتين غير متطابقتين:

ما يعرفه الآن.

وما يفعله الآن.

النفاق فجوة بين القول والكينونة.

والتسويق فجوة بين القناعة والفعل.

وفي الحالتين يراهن الإنسان على أن المسافة ستظل مفتوحة طويلاً.

سأصلح نفسي لاحقاً.

سأعذر لاحقاً.

سأرد الحق لاحقاً.

سأبدأ لاحقاً.

سأصدق عندما يتحسن وضعي.

سأعود إلى القرآن عندما تقل المشاغل.

سأصلي بقلب حاضر حين تنتهي هذه الأزمة.

سأعطي أهلي وقتاً حين أنتهي من المشروع.
سأعيش كما ينبغي... بعد قليل.
وهكذا تتحول الحياة إلى غرفة انتظار لنسخة من الإنسان لا تصل أبداً.

ثم يقول القرآن:

﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾.

لم يقل: قبل أن تذهبوا إلى الموت.

الموت هو الذي يأتي.

أنت مشغول بمشاريعك، وهو يتقدم إليك.

أنت ترتب السنة القادمة، وهو لا يراجع خطتك.

أنت تقول: بعد خمس سنوات، وهو لم يوقع على هذا الاتفاق.

إن كل خطط الإنسان مشروطة في صمت بجملة لا يكتبها في دفاتره:

إذا بقيت حياً.

لكن الغريب أننا نبنى على الشرط كما لو أنه يقين.

وبأتي المشهد الأخير ليكشف أشد أوهام التسويف إيلاًماً:

﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

لا يطلب قرناً آخر.

ولا عشرات السنين.

أجلاً قريباً.

قليلاً من الوقت.

الوقت الذي كان يتسرب كل يوم بلا انتباه صار الآن أثمن مطلوب.

ساعة كان يقتلها بالفراغ قد يتمنى جزءاً منها.

يوم كان يراه عادياً يصبح أمنية مستحيلة.

وهذه واحدة من أكثر الحقائق قلباً لمقايسنا: لا نعرف قيمة الزمن كاملة إلا حين يبدأ

باب الزمن في الإغلاق.

ثم يقول:

﴿فَأَصَدِّقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

كأن الأمنيات الكبرى بعد انكشاف الحقيقة تصبح بسيطة جداً.

لن يقول: لأوسع بيتي.

ولا: لأضعف رصيدي.

ولا: لأنتصر في تلك الخصومة.

ولا: لأثبت لهم أنني كنت على حق.

تسقط التفاصيل التي أكلت الأعمار.

ويبقى شيء واحد:

كنت أريد فرصة لأفعل خيراً.

يا لها من مأساة الإنسان حين يقضي حياته يجمع أشياء سيكتشف في لحظة النهاية أنها لا

تستحق الوقت الذي أعطاها إياه.

وهنا تأتي الآية الأخيرة بلا مساحة للمساومة:

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾.

انتهى زمن «سوف».

إن الموت ليس فقط نهاية العمر.

إنه نهاية قابلية التعديل.

ما دام الإنسان حياً، يستطيع أن يعيد كتابة سطر.

أن يرجع.

أن يعتذر.

أن يتصدق.

أن يكسر كبرياءه.

أن يغادر القناع.

أن يرد حقاً.

أن يقترب.

أما بعد أن يغلق الكتاب، فلا يعود الخبر إلى الصفحة.

ولهذا تختم السورة:

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

لم تقل: بما تقولون.
وهذا هو الخاتم الذي يعيدنا إلى أول السورة.
بدأت بكلمات:
﴿نَشْهَدُ﴾.
وانتهت بأعمال:
﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.
وهنا تكتمل الدائرة.
الإنسان يستطيع أن يصنع خطاباً كاملاً عن نفسه.
لكنه في النهاية ليس خطابه.
هو ما عاش.
ما اختار.
ما فعله حين تعارضت مصلحته مع مبدئه.
ما قدم حين كان قادراً على المنع.
ما قال حين كان الصمت أكثر أماناً.
ما ترك حين كانت الشهوة أقرب.
ما فعله في الساعات التي لم يره فيها أحد.
هناك تكون الحقيقة التي لا تستطيع البلاغة أن تسترها.

خاتمة

لا تجعل بينك وبين نفسك قناعاً

ليست سورة المنافقون ملفاً تاريخياً عن جماعة عاشت في المدينة ثم انتهت.
إنها سورة عن خطر قادر على أن يولد كلما انقسم الإنسان بين صورتين.
كلما صار ما يريد أن يراه الناس منه أعظم عنده مما يريد الله أن يجده فيه.
كلما استعمل الكلمة ليغطي الحقيقة بدل أن يكشفها.
كلما صار الدفاع عن صورته أهم من إصلاح قلبه.
كلما خاف الفضيحة أكثر من خوفه من الفساد نفسه.
كلما نظر إلى المال بوصفه مصدر القوة.
وإلى الناس بوصفهم مصادر الشرعية.
وإلى الوقت بوصفه مورداً لا ينفد.
السورة تبدأ بقناع لغوي.
ثم ترفع القناع عن القلب.
ثم عن الجسد.
ثم عن الخوف.
ثم عن الكبر.
ثم عن المال.
ثم عن مفهوم القوة.
ثم، في نهاية الطريق، لا تترك القارئ واقفاً يتفرج على المنافقين، بل تمسكه من يده
وتضعه أمام عمره:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.
وهنا يصبح السؤال شخصياً.
ليس: هل أقول الحق؟
بل: هل أصبحت حياتي امتداداً لما أقول؟

ليس: هل أبذو جيداً؟
 بل: هل أقف من الداخل إن سقطت المسندات؟
 ليس: كم أملك؟
 بل: كم يملك ما أملك من قلبي؟
 ليس: ماذا سأفعل يوماً؟
 بل: ماذا أفعل قبل أن ينقلب «اليوم» إلى شيء أطلب العودة إليه ولا أستطيع؟
 أخطر ما في النفاق أنه يبدأ في المسافات الصغيرة.
 مسافة بين كلمة وفعل.
 بين اعتقاد ومصلحة.
 بين اعتذار تعرف أنه واجب وكبرياء يؤجله.
 بين خير تستطيع فعله وتسويف يقول: غداً.
 ثم تتسع المسافة.
 حتى يصبح للإنسان وجه يراه الناس، وقلب لا يعرفه إلا الله.
 ولهذا ربما كانت النجاة كلها في أمر يبدو بسيطاً، لكنه يحتاج إلى شجاعة هائلة:
 أن تضيق المسافة.
 أن يصبح لسانك أقرب إلى قلبك.
 وقلبك أقرب إلى عملك.
 وعملك أقرب إلى ما تعرف أنه حق.
 وأن لا تحتاج إلى مسندات كثيرة كي تبقى واقفاً.
 وأن تستطيع، متى بان لك خطوك، أن تطأطئ رأس الكبر وتصعد بقلبك.
 وأن تعطي قبل أن تقول: لو أن لي وقتاً.
 وأن تعيش الآن بالوجه الذي تريد أن تلقى الله به.
 ففي نهاية المطاف، لا يخيف الإنسان أن تسقط الأقتعة عن الآخرين.
 المشهد الأعظم هو أن يسقط قناعه هو.
 وفي اليوم الذي لا يبقى فيه إلا الحقيقة، سيكون أسعد الناس من لم يحتج في الدنيا إلى وجهين.